وما معنى الثقافة والحضارة والمدنية؟

لقد اقتضانى البحث فى معنى كلمة «الغزو» أن أستطرد إلى بيان أنواعه وجرنى هذا إلى ما يشبه التعرض لمعنى الثقافة، حيث رددت كلمة الثقافة والفكر عدة مرات.. ولكن ذلك لم يكن يغنى عن الوقوف مع كلمة «الثقافة» أو «الفكر» ويجرنا هذا بالتالى إلى وقفة مع كلمة «الحضارة» وكلمة «المدنية» التى يكثر ترددادها فيما نكتبه، وفيما نتحدث به، لنوصل مفهوم هذه الكلمات قدر المستطاع.

ولنبدأ بكلمة «الثقافة» لنحدد قدر الإمكان مفهومها. فقد طرحت لها مفاهيم كثيرة.. ولنبدأ بمفهومها استمدادًا من لغتنا العربية أولاً..

جاء فى القاموس المحيط «ثقِف» بضم القاف أو كسرها ثقفًا وثقافة: صار حاذقًا فطنًا، وثقفه كسمعه: صادفه أو أدركه[1]، وامرأة ثقاف أى فطِنة، وثِقاف مثل كتاب: الخصام والجلاد، وما تسوى به الرماح (أى الآلة) وثقّفه تثقيفًا: سواه.

وجاء فى الصحاح مثل ذلك. وكذلك فى المنجد.

وجاء فى معجم مجمع اللغة العربية: «الثقافة كل ما فيه استنارة للذهن وتهذيب للذوق وتنمية لملكة النقد والحكم لدى الفرد والمجتمع.. وفرق بينها وبين الحضارة على أساس أن الأولى ذات طابع فردى وتنصب بخاصة على الجوانب الروحية، فى حين أن الحضارة ذات طابع اجتماعى ومادى غير أن الاستعمال المعاصر يكاد يسوى بينهما».

وعلى هذا يمكن أن نقول: إن كلمة «ثقف» لها استعمالات متعددة فى لغة

---

(١) ومنه قوله تعالى: ﴿فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ النساء ٩١، أى وجدتموهم وأدركتموهم كما جاء فى الآية ٨٩ قبلها ﴿واقتلوهم حيث وجدتموهم﴾.

العرب، منها أنها من: ثقِف الشيء (بكسر القاف) عرفه أو ثقُف (بضمها) صار حاذقًا فطنًا، ويقال ثقفت الرمح أو العود: إذا سويته وهذبته وأصلحته لمهمته، وذلك بآلة التثقيف وهى «الثقاف» بكسر الثاء، ويقال ثقّفت فلانًا بتشديد القاف، إذ هذبته وأصلحته وسويت معوجه، حتى صار مستقيمًا مثقفًا حاذقًا فطنًا فيما يقوله أو يفعله أو يراه.

ومن ذلك قول أم حكيم بنت عبد المطلب: «إنى حَصَان (بفتح الحاء) فما أُكلَّم (بضم الهمزة وتشديد اللام مفتوحة)، ثَقَاف (بفتح الثاء والقاف) فما أُعلَّم (بضم الهمزة وتشديد اللام مفتوحة) أى أنها امرأة محصنة فلا يخدشها أحد بكلمة، مثقفة لا تحتاج لتعليم ولا تهذيب. فالتثقيف فى اللغة العربية: بمعنى التسوية والتهذيب، وهو فى الأشياء المادية بمعنى تسويتها وتشذيبها أو تهذيبها بآلة التثقيف المادية، وهو فى النفوس بمعنى تهذيبها كذلك بأدوات التهذيب المناسبة.. من معتقدات وقيم وآداب إلخ..

فى المجالس القومية للثقافة:

وقد عنى فى المجالس القومية المتخصصة -مجلس الثقافة فيها- بتحديد معنى الثقافة وقدمت لها تصورات عدة، فكانت متلاقية.. قدمها الأستاذ الدكتور سليمان حزين والدكتور زكى نجيب محمود، وأنا.. وأقرت الشعبة الثقافية، والمجلس هذا التصور.. ومن بحث الدكتور سليمان حزين المستفيض عن الثقافة نقتطف منه قوله:

«فالثقافة فى مصر - فى رأيى - لا تترتب فقط على صلاتنا بالغرب القديم أو الحديث، ولا تتصل فقط بالتربية الحديثة وأصولها ووسائلها التى هى أقرب إلى فن التخصص التعليمى منها إلى فن الثقافة العامة، إنما هى فى رأيى: الجانب الفكرى والروحى من الحياة». «إن تعريف الثقافة بأنها مجرد المعرفة، أو أنها مجرد زيادة فى هذه المعرفة، تعريف لا يكاد يكفى لجيلنا الحاضر ولا لجيلنا المستقبل. والثقافة فى مفهومها الجديد هى نمط الحياة وأسلوبها.

«وليست مجرد ما يترتب على معرفة القراءة والكتابة من اتساع فى الأفق،

obeikandi.com

ولا ما يترتب على اتصال مصر بالعالم الخارجى قديمًا أو حديثًا، مما يوسع أفق ثقافتنا، وإنما هى التى تتصل بأسباب الحياة ومقوماتها ومظاهرها.».

«إن الثقافة فى مصر نشأت نشأة محلية، كانت على الدوام مما أوحى إلى أن أقول: «إذا كان العلم لا وطن له، فإن الثقافة لها وطن». وهى ثقافة ذات جذور ضاربة فى الأرض، ذات فروع ممتدة تحتل رقعة واسعة من حول أرض مصر فى جميع الاتجاهات».

«ولا يجوز لنا أن نتصور أننا نستطيع أن نبعث هذه الثقافة المصرية بعثًا جديدًا إلا إذا غذينا هذه الشجرة عند جذورها الضاربة فى أرض مصر، وعند فروعها وأوراقها الممتدة إلى خارج مصر من أرض آسيا وأفريقيا، وإلا إذا نظرنا إلى ثقافتنا على أنها عين الحياة المصرية ووجهها المعبر، وشخصيتها الخالدة».

«ومن هنا فإن ثقافة مصر، كانت جزءًا أصيلًا من تاريخنا العام، تاريخًا حضاريًّا، واجتماعيًّا واقتصاديًّا، بل وتاريخًا سياسيًّا، ويستحيل على من يؤرخ لتاريخ مصر أن يوفى التاريخ حقه. إذا لم يبرز شخصية مصر الثقافية، وروحها الحضارى».

«ومن الإنصاف والحق والواجب أن يدرك كل من يتصدى لبعث روح مصر. أن صلب الحياة والحضارة والتاريخ فى مصر إنما كان هو ثقافة هذا الشعب المصرى كله، بل إن هذه الثقافة فى صورتها المتحررة أبدا قد سايرت مراحل التاريخ القديم، والمسيحى والإسلامى العربى والحديث المعاصر جميعًا».

«ثم كيف نلتمس طريق المستقبل نحو إحياء الثقافة؟».

«هل نبنيها على التعليم، وقد اقتصر على لون واحد من المعرفة، هى المعرفة العلمية؟ ولا يكاد يتطرق إلى تربية الذوق والحس أو روح الفن وتقدير الجمال؟» ثم يقول ما خلاصته:

«إن التعليم بأنواعه الموجودة عندنا قد عجز عن إحياء الثقافة، وتكاد الصلة

obeikandl.com

بينهما تكون مقطوعة[1]، بل إنه وسّع الشقة بين المتعلمين، وبينهم وبين من لم يتعلموا، وهم الكثرة الغالبة، وهو أصبح بذلك غير كاف لبناء الكيان الثقافى الشامل لمصر المستقبل».

«إننا نريد أن تكون الثقافة جزءًا من حياتنا أصيلا، فلا تبقى كما هى: ثقافة كالزيت تحاول أن تخلطه بماء الحياة، فيأبى إلا أن يطفو على السطح».

«إننا نريد أن تكون الثقافة مادة قابلة للذوبان فى ماء الحياة، هى كالملح والسكر نذيبه فى حياتنا فتصبح شرابًا ذا مذاق خاص».

* * *

ولعلك ترى من هذه المقتطفات التى اقتبستها من البحث الوافى للدكتور، أن الثقافة جزء من شخصية الأمة، أو هى شخصيتها وملامحها، وأنها عصارة حياتها، أو مادة ذاتها، كونتها عوامل أصيلة فى الشعب فظلت أصيلة فيه، تنبعث عنها مواقفه إزاء الحياة ومتغيراتها، فيقبل أو يرفض على أساسها.

ومن هذا كان لكل أمة ثقافتها الأصيلة التى كونتها عوامل فيها متعددة، ورسختها فى النفوس، فأعطت الأمة روحها وطعمها الذى يختلف عن طعم ومذاق وروح الأمم الأخرى وثقافتها التى كونتها، كذلك عوامل غير العوامل التى عندنا وبذرة غير بذرتنا، فجاءت شجرتها مخالفة لغيرها من الأشجار..

والتعليم فى حد ذاته ليس ثقافة، ولا يكون له اتصال بها ما لم يتصل بجذور الأمة وثقافتها وشخصيتها يغذيها ويقويها، وما لم تصاحبه تربية نفسية تهذب المتعلم، وتغرس فيه الإيمان أو تدعمه وتقويه.

فالطب علم يتعلمه الإنسان ليحترف به طبيبًا ويعالج المرضى، وهو نفسه يمكن أن يستخدم لتهذيب النفس إذا درسه الطالب، وعرف منه تشريح جسم الإنسان مثلاً وخلاياه ودورة الدم فيه إلخ.. فيأخذ من دقة الخلق ووظائف كل

---

(١) لأن التعليم عندنا قام ويقوم على الأسلوب الغربى فى التعليم تقليدًا للغرب، وهو لذلك لا يعنى بالتربية ولا بأصول الثقافة عندنا، العناية الواجبة.

obeikandl.com

شىء فى الجسم، كمال قدرة الله، فيزداد بهذا العلم إيمانًا، وهو حين لا ينظر هذه النظرة، يكون قد استفاد علمًا فحسب، ولم يكتسب تهذيبًا ولا إيمانًا ولا ثقافة. فالعلم وحده - أى علم - ليس ثقافة، ولكن يمكن أن يشارك فى بناء الثقافة، إذا اتجه صاحبه به إلى تهذيب النفس وتربيتها.

ولهذا عرض الله بعض المظاهر الكونية فى القرآن، ودعا إلى النظر فيها والاعتبار بها...

* وفى بحث للدكتور زكى نجيب محمود عن «مجال الثقافة وحدودها» جاء قوله «إن مجال الثقافة محدود بالوسائل التى من شأنها أن تنتهى بالإنسان إلى تكوين وجهة نظر ذات طابع خاص أى أن جوهر العمل الثقافى ليس تحصيل المعرفة لذاتها، سواء كانت علمية أم معرفة عامة، بل ولا هو (أى جوهر الثقافة بالمعنى الذى يهمنا) تحصيل معرفة تعين صاحبها على أداء عمل معين، كالطبيب، إذ يعرف كيف يطبب المرضى، والمهندس إذ يعرف كيف يقيم الجسور، وما إلى ذلك من سائر المهن والحرف، فذلك كله يندرج فى دائرة «التعليم» لا فى مجال الثقافة كما نريد تحديده».

«وإنما نريد من الثقافة فى جوهرها، هى ما يؤدى بحاملها إلى تكوين رؤية خاصة يرى بها الكون والإنسان».

«فإذا قلنا «ثقافة مصرية» وجب أن يكون المراد: هو إيجاد حالة وجدانية ذهنية عند المصرى، تكون هى مداره فى القبول والرفض، فى الرضا والسخط. أمام ما يجرى حوله من أحداث ومواقف».

«إنه لا خلاف على أن هدفنا فى تنشئة جيل جديد، هو أن يكون المواطن مصريًا، عربيًا عصريًا.

«وكونه مصريًا يقتضى: التشبع بروح الدين، لأن الروح الدينية كانت الركيزة للمصرى فى كل حضارته التى أبدعها، أو شارك فى إبداعها: المصرية القديمة واليونانية الرومانية والمسيحية والإسلامية، ثم تأتى الصفة الثانية أو العنصر الثانى فى مصريته وهو:

«اهتمامه بكيانه الأسرى «والحرص على التراحم، لا بين أسرته الصغيرة فحسب، بل فى دائرة أسرته الكبيرة أيضًا»، وهذا يعنى الوحدة بين أبناء الوطن الواحد».

«ثم تأتى الصفة الثانية، وهى «حبه لوطنه الذى نشأ فيه أرضًا وقومًا».

«لكن مواطننا المصرى «عربى» أيضًا، ومن هذا تدخل مقومات اللغة العربية، من اتجاهات فكرية ووجدانية ومن ذوق فنى خاص، يحسه العربى نحو الموسيقى والشعر والتصوير وغيرها. ومن مجموعة من القيم التى سار العرف عليها طوال التاريخ على أنها التى يتألف منها الكمال البشرى».

«والمصرى المتدين العربى يعيش فى عصره، الذى يموج بخصائص لا مفر من اكتسابها لمن يريد مواكبة الحضارة فى سيرها. ومن وجود نظرة علمية عنده، ينظر بها إلى المسائل العامة فلا يكون وجوده منعزلًا عن عصره، وعن العلم بما يجرى فيه، مع المحافظة فى داخله على وجدانه المصرى العربى».

ثم قال: «إذا كانت المصرية العربية هى النقطة أو الوقفة التى نريد أن نعد المواطنين لها، فما هى الوسائل الثقافية التى من شأنها الوصول بهم إلى تلك الصورة؟»، وأجاب: «إن الينابيع الثقافية الرئيسية ثلاثة، يضاف إليها رابع يتغير بتغير المناخ السائد فى العصر المعين، وهذه الثلاثة هى: الدين والفن والأدب. أما الرابع فهو فى عصرنا حقائق علمية يراد بها بث النظرة العلمية لتكون أداة المعالجة فى المواقف الخارجية، التى تستدعى استخدامها»

«بمعنى أنها تعين الإنسان الأصيل على اتخاذ الموقف المناسب، فلا يكون فجًا، ولا جاهلا بعصره، كأنه من القرون الأولى، فيثير عليه الضحك والسخرية، ويرفضه مجتمعه.

«فالدين مصدر ثقافى لكل إنسان بصفة عامة، وللمصرى بصفة خاصة منذ فجر تاريخه، على تعدد العقائد الدينية التى استظل بها، لكنه كان على دين فى كل العصور».

«ونريد بالأدب فيما نعنيه مجموعة الأفكار الأدبية التى تكون لها سيادة فى

عصره، ومن قبيل ذلك: الحرية والعدالة والديمقراطية والتبعة الأخلاقية، والتعاون الاجتماعى.. إلخ».

فهذه الأفكار لا تفرزها علوم طبيعية أو رياضية، ولا الاجتماعية فى صورتها الاكاديمية، إذ لابد من عرضها على نحو يوقظ فى القارئ شعور الاعتزاز بقومه وماضيه أى بغرض تربيته وتثقيفه.

وهذا يعنى أن يرتبط العلم بالينابيع الثقافية على نحو يقوى المعانى والروح فى النفوس. فالتاريخ يمكن أن نتناوله بأسلوب السرد الجاف كعلم، ولكن العلم الذى نربطه بالمعانى والقيم ما أمكن، هو الذى يغذى الثقافة ويتدخل فى بنائها وتنميتها وتقويتها».

فدراسة «التلقيح» كعلم خالص، مجرد معلومات، ولكن يمكن بعث الروح فى هذه المعلومات حتى تنبض بالحياة، حين نربطها بقدرة الخالق سبحانه ﴿الذى خلق الأزواج كلها﴾[1] ﴿ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾[2]. وقد عرضها القرآن لهذه الغاية ﴿لعلكم تذكرون﴾.

حينئذ نسخر العلم أو نتخذه أداة لتقوية الثقافة وتدعيمها فى النفوس.

وواضح تماما من بحث الدكتور زكى أيضا: ان ثقافتنا تقوم على الدين وقيمه، والتشبع به، وعلى البيئة والوطن الذى نشأنا فيه والتصقنا بترابه، وتنفسنا فى هوائه، وشربنا من مائه، وتغذينا بغذائه، وعايشنا على أرضه زملاءنا وأترابنا، وتداولت علينا فيه ظروف حياتنا، وعلى العروبة ولغتها وآدابها وأذواقها وجمالها، والأحاسيس التى تنبض لها عروقنا، ويتجاوب معها وجداننا، ويساعدنا على تنمية ذلك وتقويته فى نفوسنا علوم نكتسبها، مما يموج به عصرنا من علوم، نفسر على ضوئها الكثير من مكنونات قدرة الله، فتزيدنا إيمانًا ويقينًا، ونتخذ منها أداة لتوفير القوة لنا، لنحافظ على ديننا وأرضنا ولغتنا وعزتنا... فلابد للمثقف – إذن

---

(١) سورة يس ﴿سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾ الآية ٣٦.

(٢) الذاريات ٤٩.

– من الانفتاح على علوم الحياة لتزيده إيمانًا، وتزيده قوة واطمئنانًا وعزة وسلطانًا...

وبهذا كله الذى وضحه الدكتور أيضًا فى بحثه يتبين أن ثقافة الأمة هى التعبير عن أصالتها وشخصيتها وملامحها، وأن ثقافة كل أمة جزء منها، محلية النشأة والطابع، مجلوة ومحلاة ومنسقة بعلوم العصر... وهو فى هذا يسير مع الدكتور سليمان فى اتجاه واحد.

ما أراه فى الثقافة:

ثم يأتى بعد ذلك بحثى وعنوانه: «الثقافة. مفهومها ومكانتها فى بناء الحضارة». وأرى أنه لا بأس علىّ إذا ذكرت خلاصته هنا، مع بعض تعديلات، لأنى قد تعرضت فيه أيضًا لإيضاح معنى كلمتى: المدنية والحضارة، حسب اجتهادى فى تصورها وقلت:

«من الضرورى ونحن نستعمل كثيرًا كلمات: ثقافة، حضارة، مدنية، أن تكون معانيها ومدلولاتها واضحة محددة، أو أن تكون تعاريفها أو حدودها – كما يقول المناطقة – مفهومة كلما أمكن ذلك، لأن الذى نلاحظه أننا نستعمل هذه الكلمات استعمالا سائلا أو استعمالا مختلطًا ومتداخلا غير محدد... وهنا يكون الخطأ واللبس...

إننا نردد كلمة الثقافة، ونقول عن فلان إنه مثقف، إذا كانت معارفه متعددة، ومعلوماته متنوعة، يأخذ من كل علم يستطيعه بطرف منه، وأحيانًا نقول عن فلان إنه متحضر أو متمدن ونظن أن الكلمتين بمعنى واحد...

ولعل من أسباب ذلك أننا لم نرجع حتى إلى أصول لغتنا، لنعرف منها شيئًا عن هذه الكلمات أولاً.. وهذا هو ما ينبغى.. كما ذكرت ذلك من قبل.

لكن عولنا على استيراد هذه الكلمات، واستيراد معانيها معها، مع ذكر الكلمات الأجنبية التى ترجموها... فقد قالوا إن كلمة Civilization تعنى حضارة وكلمة Culture تعنى ثقافة.

ولكن ما معنى: حضارة ومدنية، وماذا يقصد منهما؟

يقول الدكتور أحمد حمدى[1] محمود:

«نحن معذورون عندما نسيء فهم معنى الحضارة، فلقد نقلناه عن أمم ما زالت مختلفة فى تصورها له، وبمعنى أصح فى تصور الكلمتين الدالتين على معنى الحضارة «أى الكلمتين الأجنبيتين»»، ثم ذكر أن العالم الأنثروبولوجى الألمانى الأمريكى: «ألفريد كروبر» (١٨٧٦-١٩٦٠) جمع لها من التعاريف مائة وواحد وستين تعريفًا...

وهذا يعنى أنهم هناك اختلفوا هذا الاختلاف الواسع، فى تعريف كلمة الحضارة، وكل معرف لها عرفها حسب حالة وطنه الذى يعيش فيه، ووجهة نظره الخاصة.

ومن هنا كان اختلافنا - نحن الناقلين - بالتالى... لاسيما وقد تغير عند الغرب مفهوم كلمتى: ثقافة وحضارة، من جيل لجيل، ومن بلد لبلد.. ولهذا نجد الدكتور أحمد حمدى فى كتابه السالف الذكر يختار أن يعبر بكلمة الحضارة عما تعنيه كلمة الثقافة أيضًا... وأدخلهما معًا فى مفهوم واحد... بينما فرق بين الحضارة والمدنية.

فلابد فى رأيى - إذن - من الرجوع لمفهوم هذه الكلمات فى اللغة العربية، لعلها تضيء لنا ولو جانبًا من الطريق، فإذا كان كل عالم أو باحث هناك قد أعطى تعريفًا للحضارة مثلا حسب تفكيره وجوه فى البلد الذى يعيش فيه، فما علينا - إذن - إلا أن نرجع نحن إلى لغتنا، وإن كان من المعروف أن الكلمات ومفاهيمها قد تتغير من قرن لقرن، ومن بيئة لبيئة.. ولكن مع ذلك تظل على صلة بأصلها... تتطور، لكن لا تنقطع عن جذورها نهائيًّا..

والذى نلاحظه أن ما رصد من معانى هذه الكلمات فى اللغة العربية لا يبتعد عن بعض المعانى المستحدثة المترجمة لنا من الغرب كثيرًا.

---

(١) فى كتيب له من سلسلة «كتابك» رقم ١٥ التى أصدرتها دار المعارف قريبًا ص ٥ عن «الحضارة».

«فالثقافة» سبق أن ذكرت مدلولها فى اللغة العربية، وظهر لنا أنه أصل تدور عليه المعانى المستحدثة. إذ إن معناها يرتكز على مفهوم التهذيب.

أما «المدنية» فقد جاء فى الصحاح للجوهرى أنها من: مدَن بالمكان بفتح الدال أقام به. ومنه سميت بالمدينة، وهى عكس البادية.

والمدنية تعبر عن مستلزمات حياة المدينة، وما يكون فيها من أشياء ومظاهر مادية لا توجد فى البادية، كالشوارع، والمساكن المنظمة، والمرافق اللازمة، والأدوات الراقية المناسبة لحياة المدينة، والتجمع البشرى الذى يكون فيها، وسهولة جلب ما ييسر أمور الحياة بها، إلى غير ذلك من مظاهر الحياة المادية، التى لا يمكن توفرها عادة فى البادية.

فالمدنية على هذا تعبر عن الجانب المادى للحضارة فى حياة الأمة، كالأدوات الكتابية والتصويرية والحسابية والصناعية، والقاطرة والسيارات، ووجود البنوك، والطائرات، ووسائل الاتصال وغير ذلك مما ييسر الحياة المادية على الناس فى حياتهم، فهذا كله نسميه مظاهر مدنية، أو أساليب مدنية.. أو نسميه اختصارًا «مدنية» ولها دخل كبير فى رقى الحضارة والثقافة بما أحدثته من ورق وطباعة وغيرها... إلخ.

وهذا وإن كان البدوى أو الريفى قد يستعمل بعضه، تقليدًا وتشبهًا بأهل المدن،فإنه لا يضر بالمعنى الاصطلاحى الأصلى.. لأن المدنية ما دامت تعبر عن الجانب المادى فى الحياة، فالماديات يمكن نقلها واستعمالها بسهولة، ما دام عند البدوى أو الريفى ثمنها، وله رغبة فيها، ويظل هذا الإنسان وذاك - كما هو - ابنًا لبيئته، ملتصقًا بها وبمقتضياتها فى المدينة، أو فى القرية والبادية... هذا مدنى، وذاك قروى، أو ريفى أو بدوى.. نسبة إلى طبيعة المكان الذى يعيش فيه ويقيم به ويتفاعل معه.

والمدنية ما دامت متصلة بالناحية المادية فى الحياة، فهى فى تغير وترق مستمر، حسب ما يصل إليه العقل البشرى من اختراع وصنع للأشياء المادية، والتفنن فى أساليب المعيشة.

فالمدنية تغيرت من ركوب الحصان والجمل والحمار، إلى هذه الطائرات النفاثة. ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ واستعمال الزيت فى الإنارة، قد قفز إلى استعمال الكهرباء... والاتصال بالانتقال الشخصى، قد انتقل إلى البريد، إلى التليفون السلكى، ثم اللاسلكى، وهكذا ترتقى الأمور المادية التى تلازم الحياة المدنية، من وقت إلى وقت، حسب عقل الإنسان.

ومن هنا نقول: إن المدنية تتغير من جيل إلى جيل، ومن بيئة لبيئة، أو من مدينة ومجتمع لمدينة ومجتمع، والمدنية بأدواتها أمام الجميع فهى سهلة المنال للرجل المدنى، سهلة النقل للرجل البدوى أو الريفى الذى يعرف كيف يستعملها، كالراديو والتليفون والتليفزيون والثلاجة ونحوها..

ولكنه مع استعمال هذه الأدوات لا يعتبر مدنيًّا تمامًا، لأن طبيعة البداوة أو الريف لا تزال غالبة على حياته. ولأن هناك أشياء أخرى كثيرة مدنية، ولا يمكن إيجادها فى البادية أو الريف... والمدنية ما دامت تتغير وتتطور، فقد يؤدى هذا التطور فيها إلى أن تنقطع الصلات بين أدوارها، فتندثر ثم تحيا، وهكذا...

ومما لا شك فيه أن طابع الحياة المدنية، أو طابع الحياة فى المدينة، يوجد أنواعًا من التفكير، وأنواعًا من السلوك، لا توجد فى البادية أو الريف، أو فى الحياة الغير المدنية، وهذا أمر ظاهر وملموس فى كل أمة، حيث نلمس الفرق الكبير بين إنسان المدينة، وإنسان البادية أو القرية. سواء من حيث التفكير، أو التصرف، أو أسلوب الخطاب...

فمع أن البدوى أو الريفى عنده أدواته التى يستعملها، وأنظمته التى تحكم تصرفاته، نراه يغلب عليه طابع البساطة وعدم التعقيد، تأثرًا بالبيئة الهادئة البسيطة الغير المعقدة الممتدة الساحة أمامه، التى يتعامل معها، ويعيش فيها...

على عكس الرجل المدنى، الذى يعيش فى جو تحكمه أساليب صناعية، فكل ما يعيش فيه وكل ما حوله، صناعى أو مصطنع، وكل من يعيش معهم ويحتك بهم، يلزم لهم أسلوب خاص فى التعامل، وفى الخطاب.

ومن هنا تتركب حياته وتتعقد، على عكس الإنسان البدوى والريفى، ولابد حينئذ للرجل المدنى أن يعيش فى المدينة بالأسلوب الذى يتفق معها. ومن هنا اختلفت أساليب الحياة، وأنواع السلوك فى المدينة عن القرية، وفى مدينة عنها فى مدينة أخرى.

وإذا عاش المدنى فى الريف أو البادية بأسلوبه وسلوكه فى المدينة، تعب وأتعب الناس، وكذلك إذا عاش البدوى أو الريفى فى المدينة بعقليته وأسلوبه وسلوكه فى القرية، تعب وأتعب الناس.. ووقع فى «مطبات» لا حصر لها..

ولعله مما يصلح شاهدًا على هذا - مع أنه أمر نلمسه - ما وقع لشاعر بدوى وهو على بن الجهم حين انتقل لبغداد، وأراد أن يمدح الخليفة، فكان مما مدحه به هذا البيت:

أنت كالكلب فى حفاظك للود ... وكالتيس فى قراع الخطوب

فمدح الخليفة بصورة وألفاظ يمكن أن تكون مقبولة فى البادية، ومنتزعة من بيئته التى عاش فيها، بين وفاء الكلاب، وقوة ذكر الماعز على القطيع معه.

ولكن هذه الألفاظ، وهذه الصورة فى المدينة المتحضرة ممجوجة وقبيحة، ولذلك انزعج الذين كانوا يستمعون للشاعر مع الخليفة، وهموا به، لولا أن الخليفة أو أحد مستشاريه، حذر هذا البدوى، لأنه يتكلم حسب سجيته الطبيعية، ولا يعرف ما تقتضيه الحياة المدنية فقال ما يعرفه، ولذلك أشار بأن يتعرف الشاعر حياة المدينة وما فيها، ويعيش فيها مدة.

وكان ما أشار به وعاش البدوى «على بن الجهم» حياة المدينة، وعاد ليمدح الخليفة بقصيدة جميلة الرواء، مهذبة الألفاظ والتصورات، فقال فى مطلعها:

عيون المها بين الرصافة والجسر ... جلبن الهوى من حيث أدرى ولا أدرى

وهذه الظاهرة المدنية، تتداخل عند بعض الناس مع الحضارة، فيتحدثون فيها على أنها مظاهر الحضارة، كما تحدث غاندى مثلًا فى كتابه «حضارتهم وخلاصنا»، فذكر ما تتمتع به الشعوب الأوربية وما يتوافر لها من تسهيلات سكنية، ومن ملابس وأسلحة حديثة، وأدوات للزراعة وغير ذلك، وقال إنها من مظاهر

openkanda.com

الحضارة لا تهتم بالدين والأخلاق، بل تستهزئ بها وبمبادئها.. وتختط لنفسها طريقًا يقضى عليها ويدمرها هى والذين يعتنقونها[١].. إلخ فماذا تقول لغتنا ومراجعنا العربية عن الحضارة؟

الحضارة:

وهى من: حضر، ولها معان متعددة، منها:

إنها من الحضر ضد البادية أى الإقامة فى الحاضرة، وهى المدينة، والقرية، لأن الإقامة فيها لها أسلوبها ومتطلباتها.

جاء فى الصحاح:

الحضر خلاف البدو، والحاضر: خلاف البادى والحاضرة: خلاف البادية، وهى المدن والقرى والريف، والبادية خلاف ذلك (يعنى لا مدن ولا قرى فيها)، ويقال فلان من أهل الحاضرة، وفلان من أهل البادية، وفلان حضرى، وفلان بدوى.

والحِضارة (بكسر الحاء وفتحها أيضًا) الإقامة فى الحضر[٢] يقول القطامى الشاعر:

ومن تكن الحضارة أعجبته ... فأى رجال بادية ترانا؟

وفى معجم المجمع اللغوى:

الحضارة: ضد البداوة، وتقابلها الهمجية[٣] والوحشية، وهى مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى.

---

(١) انظر ص ٥٧ وما بعدها فصل «الحضارة» من كتابه طبع بيروت سنة ١٩٥٩ م. الطبعة الأولى «حضارتهم وخلاصنا».

(٢) فإذا أطلقنا الحضارة على آثار أو نتائج هذه الإقامة لم نبتعد كثيرًا كما جاء فى كلام معجم اللغة العربية.

(٣) أرى فى هذا شيئًا من التجاوز أوالقسوة على من لم يعش فى الحضر أوالمدن. وإذا كانت الحضارة=

obeikandl.com

والحضارة: جملة مظاهر الرقى العلمى والأدبى والفنى، التى تنتقل من جيل إلى جيل فى مجتمع أو مجتمعات متشابهة. والحضارات متفاوتة فيما بينها. ولكل حضارة نطاقها، والحضارة يدخل فيها صنع الإنسان، على عكس البداوة، ولعل من ذلك قول شاعرنا العربى فى الحسن والجمال:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفى البداوة حسن غير مجلوب

ويظهر من هذا أن الأصل والأساس فى المدنية والحضارة، مراعى فيه الإقامة فى المدينة التى هى الحاضرة، وما يتبع هذه الإقامة من أساليب الحياة ومظاهرها التى تختلف عن مظاهر البادية..

ومن هنا لا يبعد كثيرًا أو لا يجنح كثيرًا أولئك الذين تكلموا عن الحضارة على أنها تشمل كل الأساليب التى تتبع فى المدن، سواء أكانت مادية كالآلات والأدوات التى يستعملها المتمدن المتحضر، أو أدبية من الأفكار والعادات وأساليب الحياة التى تسود فى حياته كما تحدث غاندى.. فالفصل بينهما إذن عند بعض الناس، يمكن أن نعده فصلًا اعتباريًّا لشىء واحد أى قائمًا على اعتباره هو، حسب نظرته لما يجرى أو يظهر فى حياة المدينة أو الحاضرة، فيسمى بعضها مدنية والبعض الآخر حضارة.

ومن هنا نرى عالمًا مصريًّا كالدكتور أحمد حمدى الذى سبقت الإشارة إليه وإلى كتابه، يفرق بين المدنية والحضارة.. على أنهما وجهان لعملة أوحياة واحدة.. وهى حياة المدنية أوالحاضرة، فهو يختار «استعمال كلمة حضارة للدلالة على الجانب المعنوى فى الحياة، وكلمة مدنية للتعبير عن الجانب المادى أو التكنولوجى منها ويقول[(١)]:

«كل أفعال الإنسان ومبتكراته ومعداته وأدواته تتبع جانبًا من هذين الجانبين، فإذا بدأنا الكلام بالحضارة المادية أى «المدنية» فسنرى أن الأدوات المختلفة

= ضد البداوة، فكأننا نحكم على البدويين بالهمجية والوحشية، لأن الحضارة تقابلها البداوة وإذا كانت الحضارة مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى، فالحكم على ما تحت هذه المرحلة بالهمجية والوحشية ظلم فالبدو لا يبلغون هذه الدرجة وهم (ليسوا بمتوحشين ولا همجيين جميعًا.

(١) من صفحة ١٨.

كالآلة الكاتبة والقطارات، والبنك والمصنع ونظام النقد تتبع عالم المدنية، وترمى هذه الأشياء إلى المنفعة، ونحن نتخذها لإشباع رغبة لدينا «لا لذاتها».

«فإذا انتقلنا إلى الحضارة، فسنرى أنها تتمثل فى لوحات الفن والاشعار والتمثيليات والأفلام السينمائية والفلسفة والعقائد والكاتدرائيات.. وكل هذه الأشياء نريدها فى ذاتها، وهى تتجاوب وضرورات بداخلنا وليست خارجها، فهى تنتمى إلى عالم الحضارة بقيمته وأساليبه ووجدانياته وخاطراته الفكرية».

«ومن هذا العرض نتبين أن الحضارة مباينة للمدنية، فهى أى الحضارة تعبر عن نفسها فى طبيعتنا وأساليب معيشتنا وتفكيرنا، ولقاءاتنا اليومية ونظريتنا للفن والأدب والدين وجوانب متعتنا.

وللأشياء فى الأغلب جانبان: أحدهما «حضارى» والآخر «مدنى» ومعيار التفرقة بينهما هو رد هذا التساؤل: هل نريد هذه الأشياء فى ذاتها أو نريدها لبلوغ غاية أبعد؟ وما مبرر وجودها من الحاجة الخارجية، أو أننا نبتغيها لإشباع ضرورة داخلية؟

وهو يقصد - كما أفهم من هذا - أن الوسائل والأدوات التى توصلنا لغاية خارجية ومادية نسميها مدنية، والأشياء التى تحقق لنا رغبة نفسية داخلية ذاتية أو تعبر عنها، نسميها حضارة.

فالقطار والأدوات التقنية لا نسميها حضارة، ولكن مدنية، وهى توصلنا لغاية خارجية من الانتقال بسرعة، وحرث الأرض ونقل الأنباء، وطهو الطعام، وما يماثل ذلك، وهذه كلها أشياء مادية خارجة عن نفس الإنسان ولو أنها تحقق له رغبة. فهى أشياء مدنية..

وهذه بلا شك تخالف ما تحدثه لوحة فنية، أو قصيدة شعرية، أو عظة دينية، فنتيجة هذه وأمثالها تصب فى نفس الإنسان، فى داخله وتؤثر فيه، وهى التى تسمى مظاهر حضارة..

وتبعًا لهذا «فالمدنية فى تقدم مستمر، والحضارة ليست كذلك، فأدوات المدنية

فى ارتقاء دائم وليست كذلك الحضارات»، بل قد تنتكس وتبيد، إذا طغت الناحية المادية[1] على المعنوية..

والدكتور حمدى بهذا العرض يرى اقتراب الحضارة مما نفهمه من معنى الثقافة كثيرًا فقد دخل فى الحضارة التأثير الدينى والفنى والأدبى وما يشبه ذلك مما يؤثر فى داخلية الإنسان.. ووجدانه.

ولذلك رأيناه فى التفرقة بين الحضارة والمدنية يقول: «إنه لا يصادف تأثير المدنية أية معوقات، كالتى يصادفها تأثير الحضارة، فالشرط الأساسى فى انتقال الحضارة هو التشابه فى العقلية بين الطرفين، فلن نتوقع ممن يفتقر إلى موهبة الفنان تقدير الفن، أو من أصحاب الآذان غير المرهفة أن يعجبوا بموسيقات الحضارة.

«أما المدنية وأدواتها فنحن قادرون على الاستمتاع بمنجزاتها بغير قيد ولا شرط، يقتنيها كل من ملك ثمنها، وعرف كيف يستعملها، ويمكن للصغار أن يصلحوها كعامل صغير يصلح ماكينة من اختراع كبار العلماء.

فى حين لا يستطيع صغار الشعراء أن يضيفوا إلى أى بيت شعرى جادت به قريحة أحد عظماء الشعراء، وما نستطيع أن نحصل عليه من حضارتنا أو حضارة عشيرتنا يتوقف على شخصيتنا وتكويننا العقلى والروحى، أما منجزات المدنية فرهن إشارتنا».

والثقافة كما سبق تعريفها وكما سيأتى هى ما تؤدى إلى وجود «رؤية» أو حالة وجدانية داخلية للإنسان، على أساسها يقبل أو يرفض.. وهذا هو ما أشار إليه الدكتور فى كلامه السابق من أن قبول الحضارة ومنجزاتها «يتوقف على

---

(١) وفى التاريخ دول وحضارات كثيرة، سادت، ثم بادت، لتغلب الجانب المادى والترف على أهل الحضارة والدولة، حتى انحلت أخلاقهم، وساءت نظراتهم وتصرفاتهم، فهدموا بذلك حضارتهم ودولتهم والله سبحانه يقرر هذه القاعدة فى قول: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرًا﴾ الإسراء ١٦، وليس أمر الله للمترفين بمعنى طلب الله منهم ذلك، بل تركهم والتخلى عنهم، أو جعلهم أمراء ولذلك جاءت قراءة ﴿أمّرنا مترفيها﴾ بتشديد الميم، فطغوا وانصرفوا إلى الترف وساءت أخلاقهم فلم يعنوا بالمعانى والقيم كثيرًا فدب فيهم الانحلال وبادوا، وبادت حضارتهم.

obeikandl.com

شخصيتنا وتكويننا العقلى والروحى» يعنى على ثقافتنا الداخلية..

فالصلة - إذن - بين الثقافة كما نفهمها وبين الحضارة كما يتحدث عنها وثيقة، وكأن الحضارة هى الوجه المعبر ظاهريًا عن الثقافة، أو هى الثقافة من جانبها العملى.. ولهذا نشاهد ونقرأ أن الثقافة حينما تضمحل وتتمزق، تبدأ الحضارة بالتالى فى الانهيار.. فما انهارت حضارة فى التاريخ إلا للتفسخ الخلقى والدينى والوجدانى، وتخلى أصحابها عن المبادئ والأسس الأصيلة التى قامت عليها شخصيتهم أو حضارتهم أو دولتهم.. وهذا هو ما يتلاقى مع قوله تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا﴾[1].

فالمعنى المراد من كلمة «الثقافة» موجود - حتمًا سواء جعلنا له عنوان الثقافة - أو أدمجناه فى معنى «الحضارة» على أساس أنه العامل الفعال فى الحضارة: تعلو وتسمو، أو تهبط وتنخفض تبعًا لسموه أو انخفاضه.. ومن الصعب نقل هذا المعنى من شعب إلى شعب آخر كما ننقل مظاهر المدنية، ولذلك نرى الدكتور يقول ص ٢٣:

«وهكذا يتبين أن المدنية تتبع فى انتقالها سبلًا مختلفة عن السبل التى تتبعها الحضارة، فانتقال المدنية أسرع وأبسط، ولا يتقيد بتشابه عقلى أو حضارى»

فنرى السلع المختلفة من نتاج المدنية يستعملها الناس فى أمريكا، ونرى البدوى والريفى فى أى مكان، ونرى المسلم والمسيحى، والبوذى والهندوسى، ومن لا دين له يستعملونها. أى يستعملها أناس مختلفو الثقافات وبالتالى الحضارات.

أما الحضارة فليست كذلك، إذ لا يمكن نقلها إلا فى بيئة عقلية وروحية ونفسية مشابهة لبيئتها الأصلية، وهذا من الندرة بمكان، ولذلك كان انتقال حضارة بلد لبلد أمرًا نادرًا غاية الندرة. ويشبه ذلك ماديًا نقل الأشجار والزراعة من

---

(١) سورة الإسراء ١٦ ويشبه ذلك قوله تعالى: ﴿وضرب الله مثلًا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ النحل ١١٢ وكفرت بأنعم الله يعنى وضعتها فى غير موضعها ولم تحسن التصرف فيها..

منطقة حارة إلى منطقة باردة، إذ لا يمكن أن يحيا الزرع فى البلد المنقول إليها وينمو ويثمر، إلا إذا توفر له جو البلد الأصلى، وطبيعة أرضه، وإلا ذبل، أو ضعف أو مات..

وهذا نفسه شبيه بما نقوله عن الثقافة أيضًا.. إذ أن لكل أمة أو مجتمع ثقافة خاصة به، هى النتاج الطبيعى النفسى لمعتقداته ولغته وبيئته، وما ترسب فى نفسه من تقاليد وعادات، وما استفاد به من الماضى والحاضر، مما يجرى من حوله، وعلى أساس هذا تكون الحضارات أيضًا باعتبار أن الحضارة هى الوجه العملى للثقافة..

فهناك - إذن - ارتباط وثيق بين الحضارة والثقافة، يمكن أن يكون ارتباط الولد بوالده، أو النبات بالأرض التى نبت فيها وبجوها.. أو ارتباط الأثر بالمؤثر.

فالثقافة هى الحالة الوجدانية للشخص أو للأمة عامة التى كونتها عوامل متعددة من معتقدات ولغة وبيئة وموروثات... إلخ.

هذه الحالة الوجدانية، تعتبر الحضارة وجهها العملى. فإذا انحلت الثقافة انحلت الحضارة وإذا تمسك القوم بثقافتهم، ازدهرت حضارتهم.. فالحضارة نتاج هذه الحالة الوجدانية[1] الداخلية.. ولذلك نرى حضارات قامت وسادت، ثم

---

(١) ولذلك تتنوع الحضارات وتتلون بلون الثقافة التى عليها المجتمع، فإذا خلت ثقافة مجتمع من المعانى والقيم، وكانت ثقافة تغلب عليها الناحية المادية، انبعثت عنها حضارة طابعها الغالب عليها مادى، كما نرى الآن فى الغرب، حيث تسود النزعة المادية وتتحكم فى سير الحياة، فتؤدى فى النهاية إلى أن تدمر نفسها بنفسها، وذلك على عكس الثقافة الإسلامية التى يدخل فى تكوينها الدين والقيم فتقوم عليها حضارة فيها مراعاة للدين والقيم الخلقية فى تحصيل الجانب المادى، فيحصلون على الجانب المادى ولكن بطريقة إنسانية لا تهدر فيها القيم والمبادئ الرفيعة. فحين دخل قائد أحد الجيوش الإسلامية بلدًا فى آسيا الوسطى احتج أهلوها بأنه لم ينفذ معهم مبادئ الإسلام، فأمر الخليفة القائد بالخروج من البلد، ثم يعرض شروطه عليهم حسب المبادئ الإسلامية، وحين أراد القادة الحربيون فى الدولة العثمانية أن ينفذ فى البلاد التى فتحوها فى شرق أوربا لغة الفاتحين الأقوياء، أصدر المفتى فتواه بأن يلتزم مبادئ الإسلام، فيعرضوا الإسلام أو الجزية، فإذا دفعوها لم يكن لهم سلطان فى أن يقهروهم على شىء يخالف مبادئ الإسلام.

وهذه لغة الحضارة الإسلامية لا يمكن أن تجدها فى الحضارة الغربية المادية التى يهم أصحابها الفتح والتسلط المادى وسيادة القوة دون سيادة المبادئ.

obeikandi.com

بادت، أو ضعفت نتيجة تهاون قومها فى تمسكهم وعنايتهم بثقافتهم، ولكن يمكنهم إعادة أو تجديد حضارتهم، إذا رجعوا لإحياء ثقافتهم فى نفوسهم.. مثلما نقول عن الحضارة الإسلامية الغاربة التى يمكن أن تشرق من جديد لأن الأصول موجودة، ولكن أثرها فى النفوس قد ضعف، والذى يضعف يمكن أن يتقوى، إذ يمكن أن تعمل الأمة على تقوية ارتباطاتها بثقافتها، وحينئذ تعود إليها حضارتها.

فالحضارة - إذن - تقوم على جهد الثقافة وأثرها فى النفوس، تقوى وتنحل بانحلالها وتتنوع بتنوعها: فاضلة إن كانت الثقافة فاضلة، ورديئة إن كانت الثقافة رديئة.

ونظرة إلى ما تقدم نجد أن العلم أو مجرد المعلومات لا يعنى ثقافة أو حضارة، ولو جمعنا العلم من أطرافه، فقد يصل قوم إلى ذروة العلم، يكدسونه تكديسًا، أو يخترعون به اختراعات ويضيفون إليه بعقلياتهم كل يوم شيئًا جديدًا منه، ولكنهم ليسوا على قدر من التهذيب النفسى والخلقى أو الحضارى أو الثقافى، بل يمكن أن يكون العلم أحيانًا وسيلة تدمير للأمة وأخلاقها وإضعاف المعنى الجميل فى الإنسان الذى يكون به إنسانًا حقًا. كما نرى انسياق الناس والدول وراء العلم ومستحدثاته مما قد يودى بهم ويهلكهم.

وكذلك بالنسبة للأفراد، بل هو فيها أظهر وأوضح، إنسان فى ذروة العلم الدينى أو العربى أو الطبيعى من حيث تحصيل المعلومات عن هذا العلم أو ذاك، ومن حيث وصوله هو ببحثه العقلى العلمى إلى علم أو اختراع جديد، هذا الإنسان عالم فى علمه بلاشك وفى الذروة منه، ومع ذلك قد يكون إنسانًا متفسخا فى خلقه وتصرفاته وصلاته بالناس.. فنقول عنه أنه غير مثقف وغير متحضر وإن كان عالمًا..

وفى الإسلام:

ومن هنا وجدنا الإسلام يربط العلم والإيمان بالعمل، فعلم لا أثر له يهلك صاحبه ويدمر أمته.. ﴿يـأيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتًا

عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[١] وآيات وأحاديث كثيرة تندد بالذين لا يعملون بعلمهم، ولا ينزلون به إلى واقع الحياة، ولأن الله هو الذى وضع أساس ثقافة المسلم، نراه يضمن لمن يتصرف على أساسها العزة فى الدنيا والآخرة، وأفهمنا أن الذين لا يفعلون ذلك هم غير عقلاء ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾[٢] وقرر أنهم ﴿صم بكم عمى فهم لا يعقلون﴾[٣] وأنهم كالأنعام بل هم أضل ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون﴾[٤].

لأن عندهم علمًا، أو لهم الوسائل التى يكتسبون بها العلم، ويمكن أن يستفيدوا به خشية القلب، وتهذيب النفس، وإحسان العمل، ولكنهم أهدروا هذا كله، وتركوا أنفسهم كالدواب، فكان مصيرهم هذا المصير فى الآخرة، بعد مصيرهم السيىء فى حياتهم مهما حصلوا فيها من أدوات الترف، إن حصلوا.. فالعلم وحده مجرد علم ليس ثقافة. وليس تهذيبًا ولا حضارة، ولا يدل على أن صاحبه مثقف، ولا متحضر، ولا مهذب، بل ربما يكون جناية عليه وعلى مجتمعه.

وقد يكون الأمى القابع فى قريته بين زرعه ومواشيه، على قدر من الثقافة المتاحة له، وعلى قدر من التهذيب والنفع المادى والمعنوى للناس، أحسن من عالم لا ثقافة عنده ولا تهذيب ولا حضارة. عالم لا يتقيد بالقيم، غير منضبط فى تصرفاته مع الناس، بل ولا مع نفسه. هو كالثور الهائج...

فالثقافة، أو الحضارة النابعة عنها، أو القائمة عليها، لا ترتبط بالعلم الأكاديمى مجرد العلم، دون أثر له مفيد.

«ومن هنا نخطىء كثيرًا إذا قلنا عن العالم المتمكن من علمه إنه مثقف، لمجرد أنه حصل علمًا، ولو كان علم الدنيا»[٥].

---

(١) الصف/٢.   (٢) البقرة/٤٤.   (٣) البقرة/١٧١.   (٤) الأعراف/١٧٩.

(٥) وقد حفظنا من صغرنا:

وعــالم بعلمــه لم يعملن   معذب به قبل عباد الوثن

وحفظنا أيضًا:

لو كان للعلم من دون التقى شرف   لكـان أشرف خلق الله إبليس =

obeikandi.com

كما نخطئ أكثر إذا قلنا عن الذى يجمع حطبًا من كل علم: إنه مثقف. كما يجرى بيننا الآن.. بل قل عن المهذب السوى الخلق، الحسن التصرف: إنه مثقف، سواء كان عالمًا، أو أميًا يقبع فى قريته، ويمشى خلف محراثه...

إن من الخطأ الواضح أن يظل معنى الثقافة ومفهومها، معنى شائعًا كالخطأ المشهور، بعيدًا عن حماه الأصيل، لأن الجهود التى تبذل حينئذ من أجل إحياء ثقافتنا تذهب هباءً، ولا تصيب هدفًا، ولا تحقق غاية.

لابد لنا أن نشيع المعنى الحقيقى والأصيل لمعنى: ثقافة، حضارة، مدنية.. حتى يمكن وضع كل شيء فى موضعه المناسب له والأحق به..

ولذلك أعود إلى إبراز هذه المعانى وتحديدها، ويؤنسنى فى رأيى أن أجد الأساتذة الكبار من إخوانى يلتقون معى فيما أفهمه من هذه المعانى وأقرره..

فالتمدن: التأثر بحياة المدينة، وما فيها من تقدم مادى فى مظاهر الحياة.

والمدنية: هى درجة التقدم المادى الصناعى والعلمى والزراعى فى الحياة... إلخ.

فكلاهما: التمدن، والمدنية: يتعلق أو يرتبط بماديات الحياة وأساليب العيش فيها. ولذلك يسهل نقلها واستعمال أدواتها – كما قلنا – وإن لم نعرف تفاصيل صنعها.

والتحضر: هو التأثر النفسى والسلوكى بحياة الحاضرة أو المدينة أو القرية التى فيها تجمع كبير أو صغير خلاف الحياة فى البدو. التأثر بحياة هذا التجمع من ناحية الأخلاق والعادات، والقيم والمعتقدات السائدة، وأساليب الحياة والتعامل أيًّا كانت.

والحضارة: هى درجة النمو والتقدم الحياتى فى المدينة أو القرية فيما يتصل بنفس الإنسان وداخله وما يقوم على هذا من التصرفات والنظرة للحياة.

= وذلك لعلمه الكثير الذى عرضه آخر الأمر للإعتراض على أمر الله له بالسجود لآدم متكبرًا، فقال لربه: ﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾ الأعراف/١٢، ومثل قارون حين تجبر بعلمه وماله وقال: ﴿إنما أوتيته على علم عندى﴾ القصص/٧٨ فخسف الله به وبداره الأرض..

ومن هنا يمكن أن يكون لكل مجتمع حضارة قائمة على قيمه أو عاداته وأفكاره وموروثاته ولغته التى يتعامل بها، وبيئته التى لها تأثيرها فيه...

وحضارة أى مجتمع بهذا المعنى، تختلف عن حضارة مجتمع آخر فى زمنها، أو غير زمانها، حسب نظرة المجتمع للحياة والقيم إلخ...

أما الثقافة: فهى الحالة النفسية أو الوجدانية التى تكونها فى الشخص أو الأمة، المعتقدات، والقيم، والعادات والتقاليد الأصيلة، واللغة والبيئة، وهذه «الرؤية أو الحالة الوجدانية» المكونة من هذه العوامل، والتى يجليها ويقومها العلم بالحياة تتولد عنها أعمال وتصرفات يمكن أن نسميها حضارة القوم، أو حضارة الشخص..

ومن هنا تختلف الثقافات وتتنوع بين فرد وفرد، بين مجتمع ومجتمع. كما تتنوع الحضارة لأنها منبثقة من الثقافة، وقائمة عليها، فمن نوع ثقافة الأمة، تكون حضارتها، تتغذى منها، وعلى حسب نوع الغذاء الثقافى تكون حضارة الأمة، حضارة صالحة أو حضارة فاسدة، حضارة تحكمها النظرة المادية وتقديس المادة، أو حضارة قامت على أسس وقيم فاضلة، ويصبح من الصعب نقل ثقافة أمة إلى أمة أخرى، وزرعها فيها،

وكذلك الحضارة لأن لكل أمة ثقافتها النابعة من ذاتها وظروفها التى لا تتفق مع ذات وظروف الأمة الأخرى.. وبالتالى لها حضارتها القائمة على نوع ثقافتها. والمنبعثة عنها...

وإذا كانت الثقافة للأمة جزءًا من ذاتها ومقوماتها الشخصية كما قلنا، فإنه يتعين على الأمة أن تحافظ على ذاتها، وشخصيتها، أكثر مما تحافظ على مجرد حياتها ومالها، لأن المعتقدات وما يتصل بها أغلى عند الإنسان، وفى الحقيقة، من المال والنفس..

ولذلك أمر الله بالتضحية بالنفس والمال فى سبيل هذه القيم[١] وتصبح محاولة

---

(١) لعله من المستحسن علميًا فى هذه النقطة أن نرجع إلى كتاب الموافقات للشاطبى الجزء الثانى فى كلام عن مقاصد الشريعة، والله أمر بالجهاد فى سبيل الله، أى فى سبيل الدين والقيم ﴿وجاهدو=

الاعتداء على ثقافة أمة اعتداءً مباشرًا على الأمة نفسها، واستهزاءً من هؤلاء المحاولين بمقومات الأمة وسخرية منها. وهدمًا لذاتها.

فالاعتداء على معتقداتنا ومقوماتنا والتهوين من شأنها والاعتداء على شخص منا، استهزاء بالأمة واعتداء على الأمة وشخصياتها وكرامتها، يجب أن تقابله بما تستطيع من المقاومة، بل قد اعتبرت الدول الاعتداء على علمها إهانة لها، وهو قطعة قماش، لكنه أصبح رمزًا لها..

* وقد اعتبر الخليفة المعتصم العباسى الذى حكم من (٢١٨-٢٢٨هـ) اعتداء الروم على امرأة مسلمة على الحدود بينهما، استهتارًا بالدولة الإسلامية وهيبة المسلمين وشخصيتهم، وسير جيشًا للروم لتأديبهم فأدبهم ولبى دعوة المستغيثة به: وامعتصماه.
* والاعتداء على البقرة المقدسة لدى الهندوس بذبحها، يدفعهم للانتقام ممن يذبحها، فيذبحونه، وينكلون به، لأن المعتدى على البقرة قد اعتدى على ثقافتهم ومقدساتهم وكيانهم.
* والذين يستهزئون بعقيدتنا فى وجود الله ووحدانيته، أو فى إيماننا وتعلقنا برسولنا، ويسخرون من الله أو من الرسول، أو من مبادئ ديننا، وأركانه الأصيلة، ونظمه الراسخة، يعتدون على ثقافتنا، ويسخرون منا، ومن شخصيتنا، ويستثيروننا لتأديبهم والانتقام منهم - اعتزازًا بعقيدتنا وكياننا...
* والذين يحاولون توهين ارتباطنا بمعتقداتنا، وتقاليدنا الأصيلة، وبمبادئ ديننا ونظمه الأصيلة، معتدون على شخصيتنا.. ولو كانوا منا...
* والذين يهزءون بعباداتنا، أو بنا ونحن نصلى أو نحج، أو نزكى. معتدون على ثقافتنا وكياننا.
* والذين يسخرون من حفاظنا مثلا على عرضنا، ومن خلق الحياء فينا، أو يدعوننا إلى التخلى عن ذلك، أو يشجعون عليه بأية وسيلة من الوسائل،

= بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ التوبة آية ٤١ ومثلها آيات وأحاديث كثيرة.

معتدون علينا وعلى ثقافتنا وحضارتنا. ومن الضرورى أن ينالوا جزاءهم الرادع، لهم ولغيرهم من تكرار ذلك.

* والذين يهزءون بلغتنا وآدابنا، ويهملون شأنها منا، معتدون على شخصياتنا وثقافتنا، وهادمون لأصالتنا، ومن الواجب أن نكفهم عن ذلك، ولو كانوا منا[1]..

* والذين يحاولون توهين ارتباطنا ببيئتنا ووطنا، بقول أو عمل، يهيننا وينفرنا من وجودنا وانتسابنا للوطن، معتدون علينا وعلى ثقافتنا، وعلى وجودنا فى أرضنا، ومعتدون على الوطن نفسه. ومن الواجب علينا مقاومتهم وردعهم، حتى يكفوا عن ذلك. سواء كانوا أفرادًا أو جماعات، أو حكامًا منا أو أجانب عنا..

* والذين يدعون للانحراف والتفسخ الخلقى، المخالف لديننا وآدابنا وتقاليدنا الأصيلة، معتدون على ثقافتنا وشخصيتنا، ولو كانوا منا...

* والذين لا يظلون بعاطفتهم ومساعدتهم ذوى قرباهم من الرحم، أو المحتاجين من القرية أو الوطن، غير مثقفين، وهم بهذا يعزلون أنفسهم عن الأمة، وثقافتها وتقاليدها ويعيشون فيها غرباء منبوذين.

«وليس منا من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم» ﴿فهل عَسَيتم إن توليتُم أن تُفسدوا فى الأرض وتقطِّعوا أرْحامكم. أولئك الذين لَعَنَهم اللهُ فأَصَمَّهم وأَعْمَى أبصارهم﴾[2].

* ومثلهم أولئك الذين يستحسنون مظهرًا من مظاهر حضارة مخالفة لحضارتنا،

---

(١) يقول الإمام ابن تيمية (٦٦١-٧٢٨هـ) فى كتابه «إقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» ص٢٠٣ طبعة ١٩٥٠م: «واللغات من أعظم شعائر الأمم التى بها يتميزون» وقال ص٢٠٧ «واعلم أن إعتياد اللغة يؤثر فى العقل والخلق والدين، تأثيرًا قويًا بينًا، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، أوما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وذكر ما روى عن عمر رضى الله عنه «تعلموا العربية فإنها من دينكم، وتعلموا الفرائض فإنها من دينكم» وغير ذلك مما يتعلق بالعربية سأذكره فيما بعد.. لنعرف من ذلك مدى أهمية ارتباطنا بلغتنا العربية، ومدى جناية الذين يهملونها.

(٢) القتال (محمد)/٢٢، ٢٣.

obeikandi.com

كمظهر عدم ارتباط الأبناء فى الغرب بآبائهم، إلى حد إيداعهم الملاجئ الخاصة بأمثالهم، لأن أبناءهم لا يحرصون على رعايتهم فى كبرهم، وعلى صلة الرحم بينهم.

* ومثلهم هؤلاء الذين يستحسنون منا العلاقة الحرة بين الفتاة والشاب، تلك التى يباركها الآباء هناك، أو بين المرأة والرجل، ومظاهر ذلك مما يراه الناس هناك فى الشوارع والمتنزهات. وما خفى كان أعظم، أو ما يحصل فى بعض المجتمعات من تبادل الزوجات، مما يتناقض تماما مع ثقافتنا ونظرتنا الدينية..

* ومثلهم أولئك الذين يستحسنون بيننا ذلك المظهر الحضارى الغربى الذى أحدثه البرلمان الإنجليزى من إصداره قانونًا بإباحة اللواط... على اعتبار أن ذلك من الحرية الشخصية للأفراد عندهم، أو ثقافتهم قائمة على الحرص البالغ على الحرية.. فتغالوا فيها.. فكان هذا المظهر الحضارى السيىء عندهم.. وهو من أبغض الأمور عندنا، لأننا فى ثقافتنا نراعى حق المجتمع، ونراعى حقوقًا أخرى لا يراعونها.

* ومثلهم أولئك الذين ينحرفون منا عن أُصالتهم وثقافتهم، فينقلون لنا عن أعدائنا أعداء ديننا وثقافتنا ما روجوه هناك من طعون خبيثة على ديننا ورسولنا، ومبادئنا، ونظمنا الإسلامية الأصيلة، ويروجونه بيننا فى مدرجات التعليم، وفى الكتب وأجهزة الإعلام، ليتشرب به الشباب والشابات ومن لا أصالة له تحصنه، يتشربون هذه الآراء ويتشدقون بها. ويهدمون بذلك حصوننا من الداخل...

* وأشد من هؤلاء إصْرا وجناية على ثقافتنا، تلك الأبواق التى تدعو عندنا للشيوعية القائمة فى أصولها على الإلحاد، وإنكار الله ورسله، والأديان، وآدابها بصفة عامة، أولئك الجناة الآثمون فى حق دينهم ووطنهم، وكيانهم وشخصيتهم وثقافتهم، الذين يعملون على اقتلاع ذلك كله من جذوره، ليحلوا محله الشيوعية بثقافتها ومبادئها ونظمها.. وأولئك شر الناس على أممهم، وأكبر الجناة والخائنين لها ولشخصيتها وثقافتها أينما وجدوا.

* ومثلهم هؤلاء، وهؤلاء ممن ليس فى الإمكان حصرهم وتتبع صورهم، ممن

يحاولون بعمد، وبغير عمد، الهجوم على حدودنا الثقافية، وغزونا ثقافيا وفكريًا، وخلخلة داخلنا، أو تفريغنا من الداخل من عناصر شخصيتنا، ليتمكنوا منا، وذلك بعرض نماذج وصور مخالفة مما هناك، لترويجها بيننا...

ولذلك نكتفى هنا بالقول: إن ثقافة كل أمة تمثل مقومات وجودها، وشخصيتها، ولها حدودها المعروفة، ومحاولة اختراق هذه الحدود بأية وسيلة للنيل من ثقافة الأمة، هى أعظم خطرًا من اختراق الحدود الأرضية بالجيش الغازى، وكل من يسهل منا لهؤلاء الأعداء بلوغ هدفهم، من زعزعة ثقافتنا، كان حكمه حكم الطابور الخامس فى الحروب...

وكما نهب جميعًا لصد الجيش الغازى المسلح، يجب أن نهب أكثر، وبغيرة ووفاء أشد، لصد الغزاة لثقافتنا وطابورهم...

obeikandl.com